مدريد الإسلامية
من خلال دراسة غربية جديدة

أ. د. علاوة عمارة
جامعة الأمير عبد القادر - قسنطينة

لقيت مدينة مدريد في فترتها الإسلامية اهتمام الباحثين منذ فترة زمنية طويلة، حيث تركزت بالأساس على الجانب التاريخي والأثري. فقد بدأ عن البحث ماضي المدينة مباشرة بعد تحويلها إلى عاصمة ملكية إسبانية عام 1561/969م في عهد الملك فليب الثاني. غير أن الفترة الإسلامية لم تلق الاهتمام الكافي إلا في القرن العشرين، عندما نشر أوليفر أسين (J. Oliver Asìn) دراسة شاملة حول تاريخ مدريد عام 1959، والتي خصص فيها حيزا معتبرا للفترة الإسلامية[1]. وقرابة العشر سنوات بعد ذلك أصدر الباحث المصري محمود علي مكي دراسة مهمة حول "مدريد العربية" حاول فيها كذلك بالاعتماد على النصوص الإخبارية والوصفية العربية تسليط الضوء على المرحلة التاريخية الأولى من عمر المدينة في ظل الوجود الإسلامي بالأندلس[2]. وتوالت بعد ذلك الكتابات حول مدريد وتركز النقاش خصوصا حول الأصول العربية أم اللاتينية للعاصمة الإسبانية، خصوصا مع التفسيرات التي قدمها المستعرب الإسباني المعاصر، فديريكو كوريانتي (Federico Corriente)، المتخصص في اللغة العربية

[1] J. Oliver Asìn, *Historia del nombre Madrid*, Madrid, Csic, 1959.

[2] محمود علي مكي، مدريد العربية، القاهرة، 1968.

بالأندلس الإسلامية والأستاذ بجامعة سرقسطة[3]. لقد أسهمت الحفريات التي أجريت في عدة مناطق من مدريد بداية من منتصف القرن الماضي في تحسين معلوماتنا الخاصة بالمدينة، وتم نشر عدد من التقارير والدراسات الأثرية، والتي أدت بالباحثة الفرنسية كريستين مازولي-غينتار بالعودة من جديد إلى دراسة تاريخ مدريد في فترتها الإسلامية برؤية شاملة، وهذا في كتاب جديد صدر في عام 2009 تحت عنوان "مدريد: مدينة صغيرة في الإسلام الوسيط (ق 9-21 م)[4]، وهذا ما سأعرضه في هذه الورقة.

كريستين مازولي-غينتار: باحثة متخصصة في تاريخ التمدن الأندلسي

بإتمامها بامتياز للدراسة الجامعية بجامعة كون الفرنسية (Université de Caen)؛ أين ناقشت مذكرة تخرج حول الحصون الأندلسية[5]، وأطروحة دكتوراه حول "المدينة في الأندلس"[6]، أصبحت كريستين مازولي-غينتار (Christine Mazzoli-Guintard)، من أحسن المختصين في تاريخ المدن الأندلسية. وقد شغلت لسنوات عضوية المجلس العلمي لمركز البحث الفرنسي المعروف بدار دي فيلاسكاز (Casa de Velazquez) وتشغل حاليا منصب أستاذة محاضرة مؤهلة للإشراف على الأبحاث في جامعة نانت الفرنسية (Université de Nantes). ولها عدد معتبر من المنشورات العلمية على شكل كتب أكاديمية أو على شكل مقالات في مجلات علمية. ومن أهم ما نشرته، كتاب "العيش في قرطبة في العصر الوسيط: تضامنات حضرية في أرض الإسلام ق 11-12م" الصادر عام 2003[7].

---

[3] من أهم ما نشره حول هذا الموضوع:
« El nombre de Madrid », *Madrid del siglo IX al XI*, Madrid, 1990.

[4] Christine Mazzoli-Guintard, *Madrid, petite ville de l'Islam médiéval (IX^e – XXI^e siècles*, Rennes, Presses universitaires de Rennes, 2009, 268 p.

[5] *Forteresses et occupation du sol dans al-Andalus d'après le tome V du Muqtabis d'Ibn Hayyân*, Mémoire de maîtrise, Université de Caen, 1984.

[6] *La ville d'al-Andalus*, Thèse de doctorat, Université de Caen, 1992.

[7] Christine Mazzoli-Guintard, *Vivre à Cordoue au Moyen Âge, solidarités citadines en terre d'Islam aux X^e-XI^e siècles*, Rennes, Presses universitaires de Rennes, 2003.

من خلال دراستها المتعددة، حاولت جاهدة إتمام وتجديد عمل المستعرب الإسباني المعروف ليوبولد توريس بالباس.الموسوم بـ "المدن الإسبانية الإسلامية"[8].

اختيار مدريد كمجال للدراسة: التوجه التدريجي لدراسة المدينة المتوسطة والصغيرة

لقد انطلقت كريستين مازولي-غينتار من الوصف الذي قدمه الإدريسي لمدينة مدريد: "ولطليطلة في جبالها معادن الحديد والنحاس ولها من المنابر في سفح هذا الجبل مجريط وهي مدينة صغيرة وقلعة منيعة معمورة وكان لها في زمن الإسلام مسجد جامع وخطبة قائمة"[9]. لقد لقي اسم مجريط وحجم المدينة "صغيرة" اهتمام الباحثة، خصوصا وأن كلمة مدينة تشير إلى "عمق التمدن الإسلامي" كما أشار إلى ذلك عدد من الدارسين كموريس لومبار (Maurice Lombard) وأندري ميكال (André Miquel) ، لتأتي على التذكير بأهم الأبحاث التي جددت الرؤية إلى تاريخ المدينة في الإسلام، خصوصا كتابات أندري رايمون (André Raymond) حول تاريخ المدن العربية في العهد العثماني، ودراسة الباحث التونسي هشام جعيط حول الكوفة، وكتابات كبياك (Wladyslaw B. Kubiak) حول الفسطاط، وجون كلود غارسان (Jean-Claude Garcin) حول القاهرة وكذلك مالبيكا كويلو (Malpica Cuello) حول غرناطة، وأخيرا دراسة كل من رافاييل بلنثية رودريغاز (Rafael Valencia Rodriguez) وفالور بيشوطا (Magdalena Valor Piechotta) عن إشبيلية.

لقد لفتت الباحثة النظر إلى انتقال الدراسات المتخصصة من تاريخ المدينة الإسلامية إلى تاريخ العواصم الكبرى للإسلام كما يشهد على ذلك المجلدين اللذان نشرا عام 2000 تحت عنوان "المدن المتوسطية الكبيرة للعالم الإسلامي الوسيط"[10] و"الحواضر المتوسطية الكبيرة"[11]. ولهذا رأت من الضرورة الالتفات لدراسة المدن

---

[8] ترجمة اليو دورو دي لابنيا، الرياض، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، 2003.

[9] الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، بيروت، عالم الكتب، 1989، ج 2، ص 552.

[10] *Grandes villes méditerranéennes du monde musulman médiéval*, Rome, Ecole française de Rome, 2000.

[11] *Mégapoles méditerranéennes*, Actes du colloque organisé par l'Ecole française de Rome et Maison méditerranéenne des sciences de l'homme. (Rome, 8-11 mai 1996), Paris, Maisonneuve & Larose, 2000.

المتوسطة والصغيرة، خصوصا وأن عدد من الدارسين قد طرح هذه الإشكالية في سنوات الثمانينات من القرن الماضي. إن إشكالية المدينة الصغيرة في عالم الإسلام تركت إذن بظلالها على توجه الباحثة لدراسة مدريد الإسلامية المعروفة في المصادر العربية باسم "مجريط"، خصوصا وأن النصوص العربية المتعلقة بهذه المدينة قد لقيت العناية والتحليل من طرف فيغيرا (J. Veguera) عام 1992. فإذا كان التحول العمراني العميق للمدينة في الفترة الحديثة قد غير بصفة جذرية عمران مدريد الإسلامية، فإن البقايا الأثرية ساهمت إلى حد كبير في دفع الباحثين إلى دراسة تاريخ مدريد. ولهذا فإن عدد من الكتابات في الفترتين الحديثة والمعاصرة قد اختصرت تاريخها في "المدينة-الحصن" الفاصلة بين الأندلس المسيحية والأندلس الإسلامية أو في الحصن الحدودي لحماية الدولة الأموية، في حين نجد أن مازولي-غينتار رأت فيها كجزء من شبكة من المدن الأندلسية المتصلة فيما بينها.

ولدراسة تاريخ مدينة صغيرة بحجم مدريد، عملت الباحثة على تقسيم دراستها إلى ثلاثة أبواب، تشكل في نهاية الأمر المنطلقات المنهجية لدراسة التاريخ الحضري، وهي أصول ونشأة المدينة، تطورها وتنظيمها وأخيرا مجالها الجغرافي وعلاقتها بالمحيط الخارجي القريب والبعيد.

بين الأصول العربية واللاتينية: استمرار الجدل

يفرض المحيط الجغرافي دوره في أية دراسة خاصة بتاريخ المدن، ومن هذا المنطلق عملت مازولي-غينتار على دراسة المجال الجغرافي لناحية مدريد، خصوصا مرتفعات جنوب السييرا دو غوادارراما، ومن باب التركيز على الموقع الهام للمنطقة في قلب شبه الجزيرة الإيبيرية. كما درست الشبكة المائية المميزة للمنطقة، رغم وقوع مدريد في وسط مرتفعات عارية الغطاء النباتي[12].

وكما في أغلب الدراسات الخاصة بالمدينة الإسلامية، فإن التطرق إلى أصول المدينة في الفترة السابقة للإسلام أخذ حيزا في الدراسة المقدمة. فقد أشارت إلى غياب الطبونيم في الفترة القديمة واكتفاء النصوص التاريخية والدراسات الأثرية

[12] Ch. Mazzoli-Guintard, *op. cit.*, p. 23-27.

الإشارة إلى استقرار الإنسان بنواحيها. وهنا رفضت بشكل قطعي محاولات ربطها بطبونومين رومانيين هما مانتويا (Mantua) وميأكوم (Miaccum) نظرا لغياب الشواهد المادية.

إن بداية تاريخ المنطقة في الفترة الإسلامية ارتبط بالأساس بمرور الجيش الفاتح بقيادة طارق بن زياد غير بعيد عن موضع مدريد في طريقه إلى طليطلة، وبعد هذا التاريخ ارتبط مصير المنطقة بتاريخ الخلافة الأموية إلى غاية استيلاء ألفونس السادس عليها عام 478/1085م.

إن البداية التاريخية لمدريد كأحد حصون الثغر الأوسط جاء في مرحلة تاريخية تميزت بالتشكل التدريجي للحدود الفاصلة بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية المتميزة باستقرار بربري كثيف[13]. وقد أثبتت الأبحاث الطبونومية عمق الاستيطان البربري بناحية مدريد لتتشكل بذلك تركيبة بشرية جديدة بمشاركة الجماعات المحلية والعربية المستقرة على الخصوص بطليطلة ووادي الحجارة[14]. إن غياب الشواهد التاريخية حول تركيبة سكان مدريد في بدايتها يجعل من الصعب التعمق في دراسة الفترة الأولى من تاريخها. فإذا ما استثنينا جماعة بني سالم المصمودية وجزناتة الزناتية المشار إليهما في المناطق البعيدة عن مدريد بسبعين كلم، فإن الغموض يحيط بمصير المنطقة قبل القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي.

لقد حاولت الباحثة في الفصل الثاني التعمق في الدراسة الأونوماستية والبحث عن أصول اسم مدريد في النصوص العربية واللاتينية وخلصت إلى أن "أصول مدريد توجد في مدينة صغيرة في الإسلام الوسيط ألا وهي مجريط"[15]. وقد أشارت إلى الصيغ العربية الأربع التي كتب بها اسم مدريد وهي "مجريط، مخريط، محريط ومشريط"[16]، وهذه الصيغ الأربع لا تخرج في تصوري عن تصحيفات النساخ في المراحل التاريخية الموالية في الفترة الإسلامية بعد سقوط المدينة مبكرا في يد

[13] *Ibid.*, p. 29-30.
[14] *Ibid.*, p. 30-32.
[15] *Ibid.*, p. 33.
[16] *Ibid.*, p. 33.

النصارى. أما فيما يخص اسم المدينة باللغة اللاتينية، فقد أحصى أوليفر آسين J. Oliver-Asin ما يزيد عن ثمانية عشر صيغة والتي رتبها إلى أربع مجموعات من حيث الأصل[17]:

- المجموعة الأولى: وهي نقل لاسم مجريط العربي وتشمل عدد من الأسماء مثل Magerit

- المجموعة الثانية: وهي الصيغة المستعربة لاسم مدريد والتي ظهرت مع نهاية القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي منها Madrit, Madrid, Matritensis

- المجموعة الثالثة: وتشمل الصيغ المختلطة الآتية من المجموعتين السابقتين مثل Magderit, Maydrit

- المجموعة الرابعة: وتشمل الصيغ الواردة لدى بعض الكتاب الذين عملوا على تأصيل لاتيني لاسم مدريد مثل Maioritum, Mageriacum

إن تاريخ مدريد ربط بشكل أساسي بتوجهات سياسية وإيديولوجية إسبانية منذ أن تحولت المدينة إلى ملكية النصارى الأسبان ولهذا فإن التصور العام لأصل الاسم قد عرف تغيرات جذرية منذ القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي. فقد أرجعه الكتاب الأوائل إلى الأصل اللاتيني فيما اعتبره الموسوعيون الذين عاشوا في الفترة الممتدة من القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي إلى القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي إلى الأصل العربي. وفي القرن الموالي ظهرت نزعة جديدة حاولت ربطه بالفترة السابقة للإسلام، تجسدت بصورة جلية في القرن العشرين عندما راح البعض يروج لأصل اسم مدريد الجرماني والسلتي واللاتيني وحتى اليوناني. واستقر رأي أغلب الباحثين الأسبان في سنوات الخمسينات والستينات من القرن الماضي من أمثال أوليفر آسين (Oliver Asin) وفديريو كوربانتي (Federico Corriente) على ترجيح الأصل اللاتيني (Maior) . وقد نجحت مازولي-غينتار في إبراز خلفية هذه التصورات المختلفة والمتباعدة زمنيا في كل مرة بالمتطلبات الظرفية منها تفضيل الكنيسة المسيحية للأصل اللاتيني للكلمة على حساب الأصل العربي، أو

[17] *Ibid.*, p. 34-35.

محاولة فليب الثاني إحياء الأصل العربي لطموحاته التوسعية في العالم الإسلامي. كما كان لتصاعد التيار القومي في القرن التاسع عشر الميلادي دوره في محاولة طمس الأصل العربي للعاصمة الإسبانية[18].

فإذا كان أوليفر آسين لا يفند عروبة كلمة مجريط، فإن عدد من الدارسين ومنهم مازولي-غينتار، يرون أنها تتركب من قسم عربي (مجرى) وقسم مستعرب اسباني (ريط) شبيه بخاتمة الأسماء اللاتينية (eutum)، ويستدلون على ذلك باكتشاف بقايا قنوات المجاري المائية في مدينة مدريد، فيما يبقى عدد كبير من الدارسين الأسبان منقسمون اليوم بين ترجيح الأصل اللاتيني والأصل العربي للكلمة[19].

أما عن مدلول كلمة مجريط أو مدريد فإن هناك اختلاف واضح بين صيغتها العربية وصيغتها القشتالية أو اللاتينية، فالعربية فيها فرضيتان. الأولى تشير إلى تعريب كلمة (Matrice) التي تدل على إشارة جغرافية مرتبطة بوادي سان بيدرو (San Pedro). والفرضية الثانية فإن كلمة "مجريط" تدل على استعمال قنوات مائية عرفت بالمجرى. ومن هنا خلصت الباحثة إلى وجود تطور في كتابة اسم الطبونيم من Matrice إلى مجريط إلى Magderit إلى Madrid[20]. غير أنه يلاحظ أنها لا تمتلك أي دليل تاريخي عن الطبونيم في الفترة السابقة للحصن الأموي، وهذا ما يجعل من الصعوبة بمكان الإقرار بالتطور التاريخي للاسم بهذه الصورة.

بداية التاريخ: الأمير محمد الأول وتأسيس حصن مجريط

دخلت مدريد التاريخ في عهد الأمير الأموي محمد الأول (238-273/852-886) عندما أمر ببناء حصن مجريط في إطار تشييد مجموعة من الحصون الدفاعية في مواجهة هجمات النصارى وعلى الخصوص للقضاء على التمردات في الثغر الأوسط. ويعد نص الإخباري الأندلسي ابن حيان (ت 468/1070) الذي نقله عن سابقه الرازي (ت 344/955) الوحيد الذي يقدم لنا معلومات عن تأسيس مجريط زمن هذا الأمير

---

[18] *Ibid*., p. 35-39.
[19] *Ibid*., p. 39.
[20] *Ibid*., p. 40.

الأموي دون إعطاء أي تاريخ محدد[21]. فإضافة إلى السببين السابقين، ترى مازولي-غينتار أن الدافع الاقتصادي كان له دور كذلك في تشييد حصن مجريط، وهذا من أجل حماية محاصيل مدينة سالم، وهذا ما أدى إلى ضمان مداخيل إضافية للإمارة الأموية وساهم بقدر كبير في تعميق انتشار الإسلام في الوسط السكاني المحلي في الثغر الأوسط[22].

التطور العمراني: من الحصن إلى المدينة (ق 4-5 هـ/10-11م)

بعد بناء حصن مجريط قبل سنة 251 هـ/856م، سرعان ما تداول عليه عدد من العمال تزامنا مع ازدهار فكري تدريجيا. وأول ملاحظة يمكن الحديث عنها هو الانتقال التدريجي من الحصن إلى المدينة في ظروف غامضة نظرا لسكوت النصوص التاريخية والدراسات الأثرية على ذلك. وانطلاقا من بعض النماذج الأندلسية المعاصرة لمدريد الإسلامية بينت الباحثة التحول التدريجي من النواة العمرانية العسكرية "الحصن" إلى المدينة "الصغيرة" كما صورها الإدريسي. وفي هذا الإطار فإن تأسيس وتطور مدريد يندرج في إطار الازدهار العمراني الذي عرفته الأندلس الإسلامية والذي بدأ ببناء مرسية عام 825/256 واستمر إلى غاية بناء مدينة الزهراء في عام 936/369. وخلصت مازولي-غينتار إلى أن عدد من المدن الأندلسية كما هو حال مدريد والقلعة نشأت انطلاقا من حصون عسكرية، وهذا بعد استقرار العمال بها وتحولها إلى عاصمة لمجال إداري واقتصادي محيط بها[23]. فإذا كان مدريد قد اعتبر بمثابة حصن ثغري في فترته الأولى فإن لم يعد كذلك بداية من فترة حكم الأمير عبد الرحمن الثالث، لأنه تطور إلى مدينة في ظروف غير معروفة[24].

في دراستها للمدينة، بدأت الباحثة بتحديد السور الذي يعد العنصر الأساسي في إعطاء وحدة عمرانية وهوية لمدينة العصر الوسيط، وهذا انطلاقا من بعض الحفريات الأثرية التي أجريت في سنوات السبعينات من القرن الماضي. لقد وضعت

---

[21] *Ibid.*, p. 44-48.
[22] *Ibid.*, p. 44-51.
[23] *Ibid.*, p. 55-59.
[24] *Ibid.*, p. 60-65.

عدة فرضيات حول أسوار مدريد بداية من 1945 وإلى غاية 2003 اختلفت جذريا في تحديد مساحتها من 35 هكتار إلى 4 هكتارات. وخلصت إلى أن مدريد توجد من بين المدن الصغيرة في العالم الإسلامي الوسيط من خلال مساحتها المتواضعة[25].

لم تشكل مدريد الإسلامية وحدة عمرانية، بل هناك مجموعات سكنية واقعة خارج سورها كما بينت الحفريات الأثرية، خصوصا تلك الواقعة على ربوة لاس فستياس (Las Vistillas) وفي شرقها. وقد تم اكتشاف عدد معتبر من المطامير الدائرية بهذه الأحياء المجاورة لسور المدينة، مما يدل على أن المدينة اتسعت خارج مركزها العمراني بعد موجات نزوح ريفي في الفترات التي تلت التأسيس[26]. وهنا تساءلت الباحثة عن العوامل التي أدت بالفلاحين إلى الاستقرار بالمحيط العمراني للمدينة هل هو بسبب السياسة الضريبية للدولة الأموية التي دفعهم لترك ممتلكاتهم الفلاحية؟

ككل المدن الوسيطة، فإن سور وتحصينات المدينة شكلان المنظر الأساسي للنسيج العمراني، كما هو حال المدينة الحالية حيث تشكل بقايا السور الإسلامي أهم آثار مجريط. ورغم الحفريات المتكررة التي أجريت بين سنتي 1972 و1985 فإن الغموض لا يزال يحيط بسور المدينة وبأهم مرافقها. وعملت مازولي-غينتاز على تدقيق دراسة المدينة، خصوصا بعدما خصصت حيزا هاما لتاريخية الحفريات الأثرية التي أجريت بحثا عن السور وعن القلعة[27]. فالتساؤل المطروح هو أين يمكن ترجيح موضع القلعة الأموية في مدريد الحالية؟ هل في الموضعين الحاملين للتسميتين العربيتين القصر (Alcàzar) أو المدينة (Almudena)؟ فكانت إجابة مازولي-غينتار أن

---

[25] *Ibid.*, p. 65-76.

الدراسات الخاصة بسور مدريد هي:

1945 : E. Tormo y Monzò
1959 : J. Oliver Asin
1980 : L. Caballero, H. Larrés, M. Retuerce, A. Turuna et J. Zozaya.
1984-1985 : B. Pavon Maldonado
1990 : F. Valdès Fernandez
2000-2004 : M. Retuerce Velasco
2003 : Mena Muñoz

[26] *Ibid.*, p. 76-81.

[27] *Ibid.*, p. 86-92.

القلعة يرجح أنها في الموضع الحالي لكاتيدرائية القديسة مريم (Santa Maria) بالمدينة، قرب الموضع السابق للجامع الأعظم، الذي بني على أنقاضه قسم من الكاتيدرائية[28]. وسمحت الحفريات الأثرية باكتشاف بقايا القنوات التي استعملت في جلب الماء إلى مدريد وتوزيعه على الأحياء السكنية. فإلى غاية اليوم، لم يتم اكتشاف من بقايا منازل مدريد الإسلامية إلا ستة في ساحة أرميريا (Armeria) وهي شبيهة في شكلها العام بالمنازل الإسلامية (فناء في الوسط وبئر)[29].

خصوصية مجتمع ثغر مدريد؟

تقصد الباحثة بمجتمع الثغر تلك التركيبة الاجتماعية التي تتلائم وطبيعة المنطقة المتاخمة للنصارى في الشمال، خصوصا من حيث الحضور المكثف للجند. وتأتي فئة العمال على رأس هرم المجتمع المدريدي، حيث أشارت النصوص التاريخية إلى عدد منهم خلال الفترة الأموية منهم عبد الله بن محمد بن عبد الله، وأبو عمر، وأحمد بن عمر، وأحمد بن عبد الله بن أبي عيسى، وسعيد بن مجمع، والفتح بن يحي. وتدل الأسماء المعروفة أن سلطة مدينة مدريد بقيت لقرابة نصف قرن في يد بني سالم، إحدى الجماعات المنسوبة لمصمودة البربرية، وهو شاهد إضافي على دورهم الكبير في الدفاع عن الثغر الأوسط ووفائهم للأمويين وإدارتهم لعدد من المدن منها مدينة وادي والحجارة ومدينة سالم[30]. ويأتي القضاة في الفئة العليا للمجتمع المدريدي، حيث أشارت النصوص إلى واحد منهم فقط.

وفي غياب الشواهد والمعطيات التاريخية، لم يكن بإمكان مازولي-غينتار معرفة بدقة فئات المجتمع المدريدي، باستثناء العلماء والعمال والقضاة حيث تتوفر على معلومات في كتب الأخبار والتراجم. وفي إطار تتبع فئة العلماء، خلصت إلى دور الروابط العائلية في هذا المجال، كما يمكن أيضا تسجيل حضور العلماء المجاهدين في مدريد الإسلامية. إن القائمة المتوفرة لـ 21 عالم تدل على الحراك

[28] *Ibid.*, p. 93-97.
[29] *Ibid.*, p. 104-111.
[30] *Ibid.*, p. 114-120.

الجغرافي للعلماء المدريديين وتعدد مشاربهم العلمية كما هو حال أبو محمد عبد الله بن سعيد المجريطي (ت 1000/390)[31].

وانطلاقا من بعض المعلومات النصية والأثرية القليلة، حاولت الباحثة تتبع فئات الحرفيين والتجار، خصوصا وأن توفر البقايا الأثرية للفخار بمدريد يدل على وجود فئة حرفية واسعة. وقد أشار ابن عبد المنعم الحميري إلى تميز مدريد بهذه الحرفة. وفي هذا الجانب، غلبت التعميمات على دراسة مازولي-غينتار كما هو شأن المبحث الخاص بالفلاحين وبعامة مدريد[32].

مدينة المرابطة والجهاد

في دراستها لمجتمع "الثغر"، تطرقت مازولي-غينتار إلى دور موقع مدريد - الذي لا يفصله عن الممالك المسيحية إلا سلسلة السييرا دو غوادارراما- في تشكل فئة المرابطين للدفاع عن دار الإسلام. ولكن ما يمكن ملاحظته هو قلة الإشارة إلى النشاطات العسكرية لمدريد خارج مجالها الإسلامي، ما عدا حملة عام 936/324 والتي سجلت انتصارا على المسيحيين[33]. وفي تعريفها للمرابط، اكتفت ببعض المسلمات الحديثة التي ربطت الوعظ بحمل السلاح. كما لمحت إلى أن حضور السلاح في المجتمع المسيحي في الأندلس كان أكثر منه في المجتمع الإسلامي الأندلسي[34].

وبنوع من التناقض، خلصت الباحثة إلى أن حضور التجمعات السكانية خارج أسوار مدريد يجعل من هذه الأخيرة بعيدة من أن نعتبرها مدينة حربية، وترجع سبب سيادة الأمن في مدريد إلى أن إيديولوجية الجهاد في الأندلس لم تكن بنفس الوتيرة التي كانت عليها في المشرق. وحضور المرابطين في مدريد لا يعني أبدا أنها مدينة عسكرية، بل غلب عليها جانب السلم[35].

مجال إداري وعسكري غامض

---

[31] *Ibid.*, p. 122-129.
[32] *Ibid.*, p. 119-143.
[33] *Ibid.*, p. 144-145.
[34] *Ibid.*, p. 146-148.
[35] *Ibid.*, p. 152-153.

إن علاقات مدريد بمحيطها الريفي الإداري منه والعسكري متعددة ومعقدة، وقد حاولت مازولي-غينتار نفض الغبار عن جانب منها باستعمال مقاربات ومعطيات متعددة على قلتها. فالمحيط العمراني القريب "الحوز" يمكن تحديده بلافيغا ذي مانزراس (Vega du Menzarres) الذي عمل على تموين الحاضرة بالمواد الزراعية وبالمواد الأولية المستعملة في الصناعات الحرفية. وقد درست الباحثة هذا المجال الفلاحي القريب من مدريد[36].

وفي الجانب السياسي ارتبطت مدريد بمدينة وادي الحجارة خلال الفترة الأموية وبطليلطة خلال فترة ملوك الطوائف في القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي. أما على الصعيد العسكري، فإن مدريد واقعة في الثغر الأوسط وتتحكم في شبكة من الحصون الدفاعية كما تدل على ذلك المخلفات الأثرية في المنطقة[37].

لم تكن مدريد بمعزل عن المدن الأندلسية الأخرى نظرا لتوفرها على شبكة من الطرقات التي وفرت لها علاقات تجارية وثقافية خصوصا مع قرطبة كما هو مبين في كتب التراجم. بل إن مدريد كانت على علاقة مع الحواضر الإسلامية البعيدة كما هو حال فاس وسجلماسة حيث زارتها عدة شخصيات من هذين المدينتين كما هو حال أبي ميمونة دراس بن اسماعيل وجساس الزاهد[38].

النهاية السياسية لمدريد الإسلامية

لقد شكلت نهاية الخلافة الأموية بداية رجحان كفة النصارى في الأندلس، ونتج عنها التراجع التدريجي للأندلس الإسلامية بفقدان عدد من المدن والثغور الهامة. وأول انعكاس على مدريد كان انفصالها عن سلطة قرطبة لصالح طليطلة بقيادة بني ذي النون، بعد نجاح ثورة غلام العطار. سنوات بعد هذا الحدث، وجدت مدريد نفسها في مواجهة الزحف النصراني بقيادة ألفونسو السادس، ملك قشتالة وليون، بعد تعرضها في البداية إلى غارات خلال الفترة السابقة، خصوصا بعد نجاح رامير الثاني (Ramire II) في نهب أرباضها عام 932/320. ونتيجة الصراعات بين ملوك الطوائف

---

[36] *Ibid.*, p. 162-166.
[37] *Ibid.*, p. 171-177.
[38] *Ibid.*, p. 182-185.

واستعانتهم بألفونسو؛ فإن هذا الأخير انتهز الفرصة واستولى على طليطلة يوم 10 محرم 6/478 ماي 1085 ثم بعد ذلك بقية مدن الثغر الأوسط بما في ذلك مدريد في ظروف غامضة. لقد عملت الكتابة التاريخية الإسبانية الحديثة في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي على اختراع مصطلح "حركة الاسترداد Reconquista" في إطار بناء الدولة القومية الإسبانية، وهو ما يتنافى مع معطيات كيفية سيطرة ألفونسو السادس على مدن الثغر الأوسط. وبداية من عام 1085/478 أصبحت مدريد مدينة قشتالية بالرغم من بقاء بعض المسلمين بها في القرون الموالية، لتدخل عصر التنظيمات القشتالية من خلال إنشاء مجلس بلدي وتنظيم إداري جديد[39].

بين الأمس واليوم: امتدادات مدريد الإسلامية

تعتقد الباحثة مازولي-غينتار أن مدريد الإسلامية امتدت بعد سقوط المدينة في يد ألفونسو السادس وهذا من خلال محاولات المرابطين والموحدين استرجاعها ثم من خلال الحضور اللافت للمدجنين والموريسكيين في المدينة إلى غاية بداية القرن السابع عشر الميلادي.

تشير النصوص التاريخية إلى محاولات مرابطية وموحدية لاسترجاع أراضي ومدن في ناحية مدريد منها الحملة المرابطية التي حاولت افتتاح المدينة عام 1109/503 وحملة الخليفة الموحدي المنصور عام 1197/593، كما أشارت بعض النصوص الإخبارية إلى وصول السلطان المريني أبي يوسف يعقوب (656-1258/685-1286) إلى أبواب مدريد، وهي المعلومة التي رفضها أغلب المستشرقين الأسبان المعاصرين[40].

وعرفت مدريد جالية مسلمة تعرف بالمدجنين (les Mudéjars) كما في معظم الأندلسية التي سقطت في يد النصارى. وقد درست هذه الجالية من طرف الباحث الإسباني دو ميغال رودريغاز (J. c. de Miguel Rodriguez) وبين استمراريتها على شكل جماعة منظمة. ويرى هذا الباحث من خلال الوثائق أن المسلمين غائبين عن أي

---

[39] *Ibid.*, p. 190-199.
[40] *Ibid.*, p. 202-206.

نشاط في المدينة من سقوطها إلى غاية 1202/599. لكن بعد هذا التاريخ، هناك حضور تدريجي لجالية مدجنة في المدينة، سرعان ما ازداد عددها بفعل تزايد عمليات أسر المسلمين. وفي أغلب الأحيان لم يتعد عددها نسبة الستة في المائة من سكان مدريد. وفي عام 1502/908 أصدر الملوك الكاثوليك مرسوما يقضي بإجبار المسلمين "المدجّنين" على ترك قشتالة وأراغون أو إرغامهم على اعتناق المسيحية بتشجيع ضريبي ومادي وهو ما ساهم بقسط كبير في نهاية الجالية المسلمة بمدريد[41].

وتشهد الهندسة المعمارية الدينية في مدريد الحالية على دور الجالية المسلمة "المدجّنة" من خلال الاشتهار بممارسة ما يعرف بالفن المدجّن والذي ما زالت ملامحه واضحة في هندسة كنيسة سان نيكولاس (San Nicolàs) وكنسية القديس بيدرو (San Pedro). واشتهرت الجالية المسلمة كذلك بالحرف الخشبية والمعدنية والفخارية وحتى النسيجية. فرغم السياسية الدينية المتطرفة للملوك الكاثوليك فإن الجالية المسلمة بمدريد حافظت على استمراريتها بفضل تنظيمها الداخلي وتمتعها بمسجد، رغم فقدانها التدريجي للغة العربية لصالح اللغة القشتالية[42].

لم تنته مدريد الإسلامية باختفاء آخر الجاليات المسلمة بها في بداية القرن الحادي عشر الهجري/السابع عشر الميلادي، بل إن عاصمة إسبانيا الحالية تحتفظ بذاكرتها العربية الإسلامية من خلال بقاء أسماء المواقع باللغة العربية مثل المدينة والقصر في وسط المدينة القديمة. كما أن الهندسة المعمارية "المدجّنة" بقيت بصماتها واضحة في أقدم الكنائس المدريدية، إضافة إلى تسجيل بقايا السور الإسلامي ضمن التراث الأثري للمدينة. كل هذه المعطيات، تقول الباحثة، تجعل من مدينة مدريد ملتقى للحضارتين الإسلامية والغربية[43].

إن كتاب مازولي-غيتتار هو حوصلة لكل ما كتب عن مدريد الإسلامية بمختلف اللغات، وهو بهذا لجدير بالقراءة والتمعن رغم التأسف من بعض التعميمات الواردة في القسم الثاني منه نظرا لقلة المادة الخبرية المساعدة على معالجته.

---

[41] *Ibid.*, p. 206-208.
[42] *Ibid.*, p. 209-216.
[43] *Ibid.*, p. 217-220.